بعد أن خُتِمَتْ سورة النور بهذه الآية التى تبين مالله تعالى من مُلْك وقَهْر وجبروت ، وبينَتْ أن العودة إليه والرجوع يوم القيامة للحساب ، بدأتْ سورة الفرقان تُبيِّن أن هذا الملْك ليس مُلْك استعباد ، إنما مُلْك رحمة ، نظمت لكم الحياة لتعيشوا فيها على هُدىً ونور ، فقال تعالى :

سورة الفرقان[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾

﴿ تبارك .. ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة ، وهى أن يعطيك الشيء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة ، فتقول : إن هذا الطعام مُبَاركٌ أو فيه بركة .

---

(١) سورة مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى : ﴿ والَّذين لا يَدْعُون مع الله إلَـهًا آخر ولا يقتُلُون النَّفْس الَّتى حرَّم اللَّهُ إلاَّ بالحق ولا يزنون .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] إلى قوله : ﴿ وكَانَ اللَّهُ غفُورًا رَّحيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] وقال الضحاك : هى مدنية ، وفيها آيات مكية . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٦٣] وسورة الفرقان عدد آياتها ٧٧ آية ، وهى السورة رقم (٢٥) فى ترتيب سور المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة رقم (٤١) نزلت بعد سورة يس ، وقبل سورة الملائكة (سورة فاطر) .

ومن معانى تبارك : تعالى قَدْره و﴿تَبَارَكَ ..⦗١⦘﴾ [الفرقان] تنزّه عن شبه ما سواه ، وتبارك : عَظُم خَيْره وعطاؤه . وهذه الثلاثة تجدها مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿تَبَارَكَ ..⦗١⦘﴾ [الفرقان] مُعجز فى رَسْمه ومُعْجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أن هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسْع مرات : سبْع منها بالألف ﴿تَبَارَكَ ..⦗١⦘﴾ [الفرقان] ومرتان بدون الألف(1) ، فلماذا لم تُكتب بالألف فى الجميع ، أو بدونها فى الجميع ؟ ذلك ليدلُّك على أن رَسْم القرآن رَسْم توقيفىّ ، ليس أمراً (ميكانيكيا) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ⦗١⦘﴾ [العلق] فرَسْم كلمة اسم هنا بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

إذن : فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ فى أى كتاب آخر على أىِّ حال كنتَ ، إلا فى القرآن لا بُدَّ أن تكون على وضوء وتدخل عليه بطُهْر .. الخ ما نعلم من آداب تلاوة القرآن .

ومن حيثُ الاشتقاق نعلم أنْ الفعل يُشتَقُّ منه الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل .. الخ ، لكن ﴿تَبَارَكَ ..⦗١⦘﴾ [الفرقان] لم يذكر منها القرآن إلا هذه الصيغة ، وكأنه يريد أنْ يخصَّها بتنزيه الله تعالى ، مثلها مثل كلمة سبحان ؛ لذلك على كثرة ما مرَّ فى التاريخ من الجبابرة أرغموا الناس على مدحهم والخضوع لهم ، لكن ما رأينا واحداً مهما كان مجرماً فى الدين يقول لأحد هؤلاء : سبحانك .

(1) - وردت ﴿ تبارك ﴾ فى سبعة مواضع بالألف : (الأعراف : ٥٤) ، (المؤمنون ١٤) ، (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) ، (غافر ٦٤) ، (الزخرف ٨٥) .
- وردت مرتين بدون الألف ﴿تبٰرك﴾ : (الرحمن : ٧٨) ، (الملك : ١) قال السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن) (١٨٨/٢) : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ، ولا يستعمل إلا لله » .

لذلك نقول فى تسبيح الله : سبحانك ، ولا تُتعال إلا لك . مهما اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله .

إذن : ﴿ تَبَارَكَ ..(١) ﴾ [الفرقان] تدور حول معان ثلاثة : تعالى قَدْره ، وتنزّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْرهُ وعطاؤه ، ومَنْ تعاظُم خَيْره سبحانه أنه لا مثيل له : فى قَدْره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كله من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبارَ إلا الله ، ولا غنىَّ إلا الله .

وسُمِّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل ، وقد نزل القرآن ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناس على هُدىً وعلى بصيرة ، فالقرآن إذن فَرَق لهم مواضع الخير عن مواضع العطب ، فالفرقان سائر فى كل جهات الدين ، ففى الدين قمة هى الحق - تبارك وتعالى - ومُبلِّغ عن القمة هو الرسول ﷺ ، ومُرْسَل إليه هم المؤمنون ، فجاء القرآن ليفرُقَ بين الحق والباطل فى هذه الثلاثة .

ففى القمة ، وُجِد مَنْ ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، وآخرون يقولون بوجود آلهة متعددة ، وكلاهما على طرفى نقيض للآخر ، ليس هناك سيال فكر يجمعهم ، فجاء القرآن ليفرق بين الحق والباطل فى هذه المسألة ، ويقول : الأمر وسط بين ما قُلْتم : فالإله موجود ، لكنه إله واحد لا شريكَ له ، ففرقَ فى مسألة القمة .

كذلك فَرق فى مسألة الرسول وهو بشر من قومه ، فلما اعترض بعضهم عليه وحسدوه على هذه المكانة وهو واحد منهم أيَّده الله بالمعجزة التى تُؤيده وتُظهر صدْقه فى البلاغ عن الله ، وكانت معجزته ﷺ فى شىء نبغ فيه القَوم ، وهى الفصاحة والبلاغة والبيان ، والعرب أهل بيان ، وهذه بضاعتهم الرائجة وتحدَّاهم بهذه المعجزة فلم يستطيعوا .

وكذلك فَرَق فـى مَسألة الخَلْق من حيث مُـقوِّمات حياتهـم ، فبيَّن لهم الحلال والحـرام ، وفى استبـقاء النوع بيَّن لهم الحـلال ، وشرع لهم الزواج ، ونهاهم عن الزنا ليحفظ سلالة الخليفة لله فى الأرض .

إذن : فَرق القرآن فى كل شىء : فى الإله ، وفى الرسول ، وفى قوَام حياة المرسَل إليهم ، ومـا دام قد فَرقَ فى كل هذه المسائل فلا يوجد لفظ أفضل من أن نُسمِّيه « الفرقان » .

ولا شكَّ أن الألفـاظ التى ينطق بها الحق ـ تبـارك وتعالى ـ لـها إشعاعات ، وفى طياتها معَانٍ يعلمها أهل النظر والبصيرة ممَّنْ فتح الله عليهم ، ومـا أشبهها بفـصوص الماس ! والذى جعل المـاس ثميناً أن به فى كل ذرة من ذراته تكسـراتٍ إشعاعـية ليست فى شىء غـيره ، فمن أىٍّ ناحـية نظرتَ إليه قابلك شُـعاع معكوس يعطى بريقاً ولمـعاناً يتلألأ من كل نواحيه ، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم .

ومن معانى الفـرقان التى قال بها بعض العلماء أنه نزل مُـفَرَّقاً ، كـما جـاء فى قوله تعـالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : أنزلناه مُـفرَّقـاً لم ينزل مـرة واحدة كـالكتب السـابقة عليـه ، وللحق ـ تبارك وتعالى ـ حكمة فى إنزال القرآن مُفرقاً ، حيث يعطى الفرصة لكل نَجْم ينزل من القـرآن أنْ يسـتوعـبه الناس ؛ لأنه يرتبط بحـادثة معينة ، كذلك ليحدث التدرّج المطلوب فى التشريعات .

يقـول تعـالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء]

لقد كان المسلمون الأوائل فى فترة نزول القرآن كثيرى الأسئلة ، يسـتفـسرون من رسـول الله عن مـسائل الديـن ، كمـا قال تعـالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١) ﴾ [الأنفال] فكان النجم من القرآن ينزل ليُجيب عليهم ويُشرِّع لهم ، وما كان يتأتَّى ذلك لو نزل القرآن جملة واحدة .

وكلمة : ﴿ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. (١) ﴾ [الفرقان] تؤيد هذا المعنى وتسانده ؛ لأن نزَّل تفيد تكرار الفعل غير « أنزل » التى تفيد تعدِّى الفعل مرة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الفرقان] كأن حيثية التنزيل عليه هى العبودية لله تعالى ، فهو العبد المأمون أن ينزل القرآن عليه . وسبق أن قلنا : إن العبودية لفظ بغيض إن استُعمل فى غير جانب الحق سبحانه ، أمَّا العبودية لله فهى عزٌّ وشرف ولفظ محبوب فى عبودية الخَلْق للخالق ؛ لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أمَّا العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

لذلك جعل الله تعالى العبودية له سبحانه حيثيةً للارتقاء السماوى فى رحلة الإسراء ، فقال :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١) ﴾ [الإسراء] فالرِّفْعة هنا جاءتْ من العبودية لله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ [الفرقان] العالمين : جمع عَالَم ، والعَالَم ما سوى الله تعالى ، ومن العوالم : عالم الملائكة ، عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، إلا أن بعض هذه العوالم لم يأْتها بشير ولا نذير ؛ لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيِّر .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فإنْ عزلْتَ من هذه العوالم مَنْ ليس له اختيار ، فيتبقى منها : الجنّ والإنس ، وإليهما أُرسل الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً ، لكن لماذا قال هنا ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ [الفرقان] ولم يقل : بشيراً ونذيراً ؟

قالوا : لأنه سبحانه سيتكلم هنا عن الذين خاضوا في الألوهية ، وهؤلاء تناسبهم النِّذَارة لا البشارة ؛ لذلك قال في الآية بعدها :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) ﴾

في آخر سورة النور قال سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٦٤) ﴾ [النور] فذكر ملكية المظروف ، وهنا قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] فذكر ملْكية الظرف أي : السماوات والأرض .

ثم تكلّم سبحانه في مسألة القمة التي تجرّأوا عليها ، فقال : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ .. (٢) ﴾ [الفرقان]

وسبق أنْ تكلمنا كثيراً عن مسألة اتخاذ الولد والحكمة منها ، فالناس تحب الولد ، إما ليكون امتداداً للذكْر ، وإما ليساند والده حالَ ضَعْفه ، وإما للكثرة ، والحق - تبارك وتعالى - هو الحيُّ الباقي الذي لا يموت ، ولا يحتاج لمن يُخلِّد ذكْراه ، وهو القويُّ الذي لا يحتاج لغيره ، فلِمَ إذنْ يتخذ ولداً ؟

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] وهذا أمر

يؤيده الواقع ؛ لأن الله تعالى أول ما شهد شهد لنفسه ، فقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

أى : لما خلقتُ الملائكة شهدوا لله تعالى ، ثم شهد أولو العلم بالاستدلال ، فشهادة الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات ، والملائكة شهدتْ شهادةَ المشاهدة ، ونحن شهدنا شهادةَ الاستدلال والبرهان .

والحق - تبارك وتعالى - يُعطينا الدليل على صدْق هذه الشهادة ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا هو التفصيل المنطقى العاقل الذى نردُّ به على هؤلاء ، فلو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لَذهبَ كل منهم بجزء من الكون ، وجعله إقطاعية خاصة به ، وعَلاَ كل منهم على الآخر وحاربه ، ولو كان معه سبحانه آلهة أخرى لاجتمعوا على هذا الذى أخذ المُلْك منهم ليحاكموه أو ليتوسَّلوا إليه .

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبُتُ لصاحبها إذا لم يدَّعهَا أحد غيره لنفسه ، وهذه المسألة لم يدَّعها أحد ، فهى - إذن - ثابتة لله تعالى إلى أنْ يُوجَد مَنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بجماعة فى مجلس فَقَد أحدهم محفظته فيه ، ولما انصرفوا وجدها صاحب البيت ، فسألهم عنها ، فلم يدَّعها أحد منهم ، ثم اتصل به أحدهم يقول : إنها لى ، فلا شكَّ أنها لَه حتى يوجد مُدَّعٍ آخر ، فنفصل بينهما .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ [الفرقان] فخَلْق الله تعالى ليس خَلْقاً كما اتفق ، إنما خَلْقه سبحانه بقَدَر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قَدْر مهمته التى يُؤدِّيها ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى]

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾

أى : أتوْا بآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هى أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الأمران .

وهذه من الآيات التى وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شبهة تناقض ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ﴾[المؤمنون] فأثبت أن معه آخرين لهم صفة الخَلْق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم . وفى موضع آخر يقول سبحانه :﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ۝٤٩ ﴾ [آل عمران]

وللردِّ على هؤلاء نقول : تعالوْا أولاً نفهم معنى الخَلْق ، الخَلْق : إيجاد لمعدوم ، كما مثَّلْنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صَهْر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شيء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويُوجده على هيئة فيها حياة ونمو